حدائق الموتى

ومقابر الأحياء

حين يشارف قطار حلوان مداخل العاصمة من الناحية الجنوبية الشرقية ، تقع العين على مفارقات عجيبة لا نحسب أنها تلحظ فى غير مصر من بلاد الله .

فما يكاد يغادر المعادى ، تلك الضاحية الجميلة المنسوقة على طراز الجنة — إن كان للجنة طراز معروف بين أبناء الفناء — حتى يشرف على مغاور " المدابغ " ومقاذرها ؛ وهذه يسكنها جماعة من الأحياء يقول الدستور : إنهم وجميع المصريين أمام القانون سواء . ثم ما يكاد يغادر هذه المباءات وتلك المقابر، حتى يشرف على غياض "مارى جرجس" وحدائقها الغناء ؛ وهذه يثوى فيها جماعة من الموتى السعداء . حتى إذا انتهت تلك الغياض واختفت عن الأنظار طالعتها كهوف " طيلون " وأكوامها القذرة ، وهذه مساكن جماعة أخرى من الأحياء ، يقرر الدستور كذلك أنهم وجميع المصريين أمام القانون سواء !

وكأنما قامت مقاذر المدابغ من ناحية وطيلون من ناحية أخرى على جانبى تلك الغياض الوريفة فى مارى جرجس سورا من الأشواك يحمى هذه الرياض ، وكأنما قام سكان هذين الحيين من الأشقياء حراسا على أولئك الموتى السعداء !

هذه المفارقات العجيبة تتوالى على العين فيما لا يزيد على ربع الساعة فى مدخل من مداخل العاصمة ، ولكنها ليست المفارقات الوحيدة فى هذا الباب، فقد سمعنا عن بعض من كلفوا مدافنهم ثلاثين ألفا من الجنيهات ، وأمدوها بالنور الكهربائى و بالماء الساخن والبارد ، وأجهزة التليفون والراديو لعلها تسمع من فى القبور !

و بينما هذه المدافن كذلك توجد عشرات الأحياء لا ينفذ إليها النور ، ولا تستقى إلا من آسن الماء ومناقع الموارد ولا تسمع عن الراديو إلا فى قصص العفاريت والجان !

ولا نحب أن نعقد الموازنة بين مساكن بعض الأحياء و بعضهم فى العاصمة والريف ولكننا نكتفى بعقدها بين حدائق الموتى ومقابر الأحياء فى جيل واحد من الناس والزمان ، وهى تبدو فى صورة مفارقة بشعة ينفر منها ذوق بنى الإنسان .

وهكذا كل شىء فى مصر ذو وضع مقلوب ، كوضع الحدائق للموتى والمقابر للاحياء والسبب لا يرجع إلى اليوم أو الى الأمس ، وإنما يرجع لسياسة الحكم القديمة المتطاولة فى العصور السحيقة ، وهى سياسة السادة والعبيد : السادة الذين لهم كل شىء ، والعبيد الذين لا يملكون شيئا .

وقد أثمرت تلك السياسة على مدى الأجيال ذلك التفاوت العظيم فى توزيع المغانم والمغارم وفى توزيع العناية والاهمال بين المدينة والريف وبين بعض أحياء المدن وبعض أحيائها الاخرى ، وبين بعض طبقات الشعب وبعض طبقاته ، بلا مثيل له إلا فى الهند حيث البراهمة والمنبوذون . وفى الهند وجد المنبوذون "غاندى" يطهرهم ويزكيهم ويحاول أن يفتح لهم أبواب المعابد وأبواب الحياة ، والمنبوذون فى مصر فى حاجة الى " غاندى " آخر يرد إليهم اعتبارهم فى عالم الواقع لا فى عالم النظريات القانونية .

من قال : إن هؤلاء الذين يعيشون فى حى المدابغ وأمثالهم سواء مع بقية المصريين المتمتعين ؟ وكيف تتحقق هذه المساواة — حتى القانونية — وهؤلاء يملكون المال الوفير والصحة الكاملة والعقل المستنير . وأولئك محرومون من هذه جميعا . كيف يتساوون حين تتشجر بينهم الخلافات القانونية ، وهؤلاء يعرفون القانون ويتقنون طرق التقاضى ويوكلون المحامين للدفاع ! وأولئك سوائم ترعى ولا تجد ماترعاه ؟!

لنكن عمليين ، فلو كان هؤلاء وأولئك أمام القانون سواء ما حدث هذا الذى يقصه علينا أحد الكتاب فى هذه المجلة عن حى المدابغ وعن سكانه العمال فيقول :

" وارتقينا ربوة عالية ، فإذا بنا نشرف على واد فسيح اجتمع له الماء والهواء وسعة الصحراء ولكنه ماء آسن راكد ، وهواء فاسد خانق ، وصحراء مترية ليس فيها سوى الركام والأنقاض .

"هذا هو حى المدابغ ، وإن شئت فقل هو حى الوباء ومصدر الأمراض والأدواء . وما ظنك بمكان لا ترى فيه إلا كل قبيح ولا تشم إلا الكريه ؟ سرنا فيه بين أوحال وقنوات تجمع فيها ماء المدابغ المتخلف من تنظيف الجلود وظل بها حتى زاد فسادا وملء وباء .

"وسارع الأهلون إلينا يشكون الحكومة قبل أن نشكو إليها ، يقولون إنهم بعثوا بالمظالم والالتماسات تارة بالبريد وأطوارا بالبرق ونادوا تفتيش صحة القاهرة ومصلحتى المجارى والتنظيم ولكن ذهب جهدهم أدراج الرياح فاستكانوا ورضوا بما حاق بهم من أذى وبلاء.

"على أن المصيبة على فداحتها — مصيبة ترك المجارى مكشوفة يأسن بها الماء — مفيدة لشركة السماد التى يسهل عليها جمع الطين المختلط بالمواد العضوية لتبيعه سمادا فيما بثمن كبير .

"وانتقلنا إلى مدابغ الحور — والحور جلود الماعز وما شابهها — فكادت المياه المتخلفة أمامها تعوقنا عن دخولها لولا تضحيتنا بنظافة أحذيتنا وجواربنا فى سبيل بلوغ غايتنا .

"دخلنا المدبغة فهالنا مارأينا بها : صبية ورجال عرايا لا تسترهم إلا خرق صغيرة ، يعملون وقد اختلط عرقهم بنفايات الجلود ودمائها ، غائصين فى الماء الآسن الى سيقانهم .

"وتقدم إلينا صاحب المدبغة، فسألته عن حال العمال فأجاب: "معدن ... أحسن منا نحن أصحاب المدابغ. أجور عالية وصحة كاملة وساعات شغل طبق نص القانون، انظر إلى الأجزخانة التي عملناها تنفيذا لأمر مصلحة العمل" وأشار إلى صندوق صغير به بعض زجاجات صغيرة وقليل من القطن.

"يشتغل عمال المدابغ في الوضع الذي وصفته عشر ساعات في اليوم، وأكثرهم لا يتقاضى أجرا ثابتا، بل يعملون بما يسمونه "الطريحة" فترى العامل كالآلة يعمل دائبا مستميتا لإنجاز أقصى ما يمكن، وهو رغم ذلك لا يكاد يحصل على كفافه إذ لا يتجاوز أجر الرجل في المتوسط ستة قروش في اليوم والغلام قرشا واحدا.

"غير أن أمر الأجور ليس ذا بال إذا قيس بما يتعرض له العمال من ضرر يذهب بصحتهم ويعود عليهم بأخطر الأمراض. ففساد الهواء في داخل المدبغة وفي خارجها والبلل والماء الذي يغرقون فيه بأقدامهم وسيقانهم طول يومهم يسبب لأكثرهم مرض السل والروماتيزم.

"وقد سألت البعض كيف يقوى العمال على الجو الخانق الذي لم نطقه لحظات، فقال "البركة في الشاي والنشادر" إذ كلما أغمي على أحدهم يعمل على إفاقته بالنشادر وأعطى قليلا من الشاي لينهض ويعود إلى مغالبة الموت ومواصلة الكفاح في سبيل العيش.

"على أن هناك فريقا من العمال يعملون فيما هو أبشع مما رأيت وأشنع. إذ يقتضيهم عملهم أن ينزلوا عراة في أحواض الجير ويمكثوا فيها طول يومهم. ولسنا ندري كيف يقوى هؤلاء المساكين على احتمال نار الجير الكاوية؟"

هؤلاء هم عمال المدابغ وسكان الحي، فهل هؤلاء سواء مع بقية المصريين المتمتعين المترفين؟ هل هؤلاء سواء مع أولئك حتى أمام القانون؟ وهل يصل القانون الى هذه المجاهل، ثم يترك هذه الحالة المفزعة التي يصفها الأستاذ محمد عبد الكريم في تلك السطور؟

إن العصر الحديث أو الحكم الحديث مطالب أن يرد الأمور إلى نصابها، وأن يرد على هؤلاء الآدميين وأمثالهم كرامة الآدمية، وأن يجعلهم وجميع المصريين سواء حقيقة أمام القانون!

ولسنا نطالب بإزالة الفوارق بين الأفراد، فهذه الفوارق ضرورة طبيعية لابد منها مادام الأفراد يولدون غير متكافئين ولكننا نطلب تقريب هذه الفوارق، بحيث تجمع بين الجميع رابطة إنسانية، فلا يصبح هؤلاء جنسا وأولئك جنسا آخر، كما هو الحال في مصر منذ عشرات الأجيال.

والسبيل إلى ذلك هو (أولا) رفع الأجور ، فقد تفاءل الكثيرون برفع الحدّ الأدنى للأجور إلى خمسة قروش . ولكن ماذا تساوى هذه القروش الخمسة فى هذه الأيام ؛ إنها تساوى ثمن قدح من الذرة أو رطل من اللحم العجالى فماذا تصنع لرجل يعول زوجة وأربعة أولاد — وهو متوسط من يعوله العامل الواحد — إن هذه القروش الخمسة قيمة اسمية فى هذا الغلاء الذى يزيد فى ثروة الأغنياء كما يزيد فى فقر الفقراء .

والسبيل إلى ذلك (ثانيا) هو إعفاء الفقراء وضروريّاتهم من الضرائب والرسوم ، وقد بدأت الحكومة بداية طيبة باعفاء صغار الملاك من الضريبة وبقى أن تعفى ضروريّاتهم من الرسوم عند الاستيراد أو عند الانتاج المحلى وأن تعوّض ذلك من رسوم الكماليات التى لا يعجز مستهلكوها عن دفع الأثمان المرتفعة .

والسبيل إلى ذلك (ثالثا) هو فرض ضرائب إضافية باسم الخدمة الاجتماعية ، وإنفاق المتحصل منها على رفع مستوى الطبقات المحرومة التى لا تحصل فى حياتها على مستوى الحيوانات . وليس فى هذا مبالغة ؛ فلتكن لهؤلاء الآدميين بعض حقوق الحيوانات !

تسيل جهود أو دماء غزيرة ... لينصب تمثال ويرفع منزل
وما نصب التمثال للكادح الشقى ... وليس له فى ذلك القصر موئل
ولكن قصاراه شراب ولقمة ... وأفراخه خضر وأنشاه مطفل
فيا رحمة الإنسان أدعوك فانجلى ... أمام بنى الانسان ، لو كان يخجل !

شاعر